الإسلام والطفل

عبد السلام الدويبي

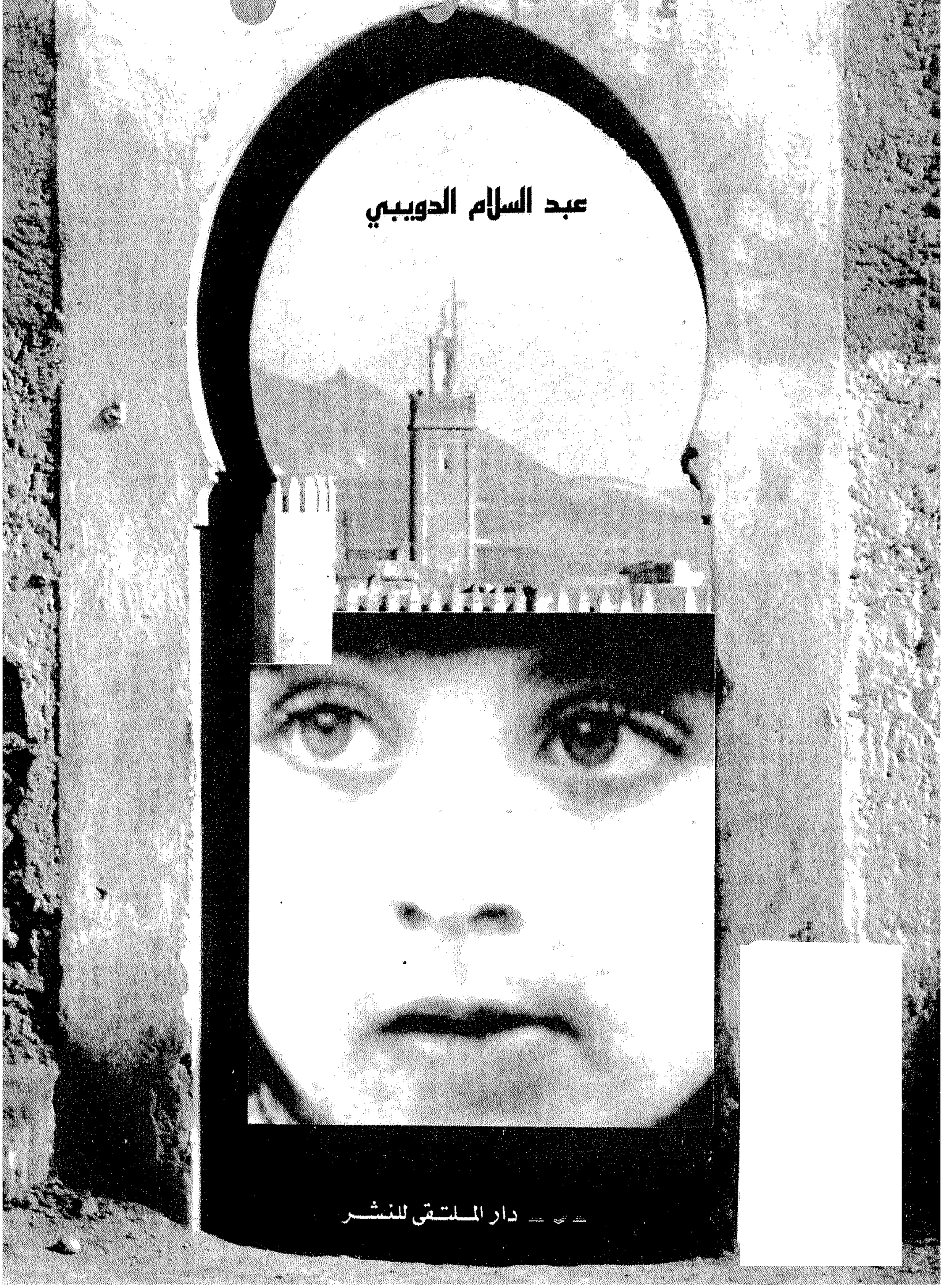

دار الملتقى للنشر

الإسلام والطفل

عبد السلام الدويبي

الإسلام والطفل

ملامح رعاية وتربية

الطفل فى الإسلام

دار الملتقى للنشر

الطبعة الأولى
1993 م
حقوق النشر والترجمة محفوظة للناشر

دار الملتقى للطباعة والنشر
قبرص ـ ليماسول ـ ص. ب : 6527 .

تقديم

حظي الإنسان في الدين الإسلامي الحنيف بتقدير عالٍ وتكريم منقطع النظير. فقد كرّمه الله وفضّله على كثير من مخلوقاته تفضيلاً؛ قال تعالى:

﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾.

(سورة الإسراء، الآية 70).

كيف لا وقد جعله الله خليفة في الأرض.. **﴿... إني جاعل في الأرض خليفة﴾.**

(سورة البقرة ـ الآية 29).

وإذ ضمن الإسلام للإنسان هذه المكانة الرفيعة، فقد ضمن للطفل اهتماماً متميزاً منذ مرحلة اختيار الأبوين وحتى يبلغ الطفل الحلم «الرشد». وقد تحددت في آيات كثيرة من القرآن الكريم حقوق الطفل ومسؤوليات رعايته وحفظه.

وإذا كان حال الطفل في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام قد تميَّز بالكثير من المظاهر السلبية كوأد البنات، وقتل الأولاد خشية الإملاق، ومعاملتهم القاسية؛ فإن حالهم بعد ظهور الإسلام قد شهد تحولاً إيجابياً جذرياً، حيث

ضُمن حق الطفل في الحياة، وحُرّم الإجهاض إلا لضرورة مرضية وباستشارة طبيب حاذق، كما حُرّم التخصيب الصناعي لما فيه من اختلاط النسب، وعدم وضوح صلة القرابة والانتماء.

بل ذهب الإسلام إلى أبعد من هذا في موضوع حقوق الطفل ورعايته حتى قبل الحمل به، حيث أمر بضرورة اختيار الزوجة الصالحة ذات النسب الحسن، ضماناً لحسن ولدها، وتلافياً لنتائج العرق الدسّاس. ووضع الإسلام أسساً ومبادىء لرعاية وتربية الطفل ضماناً لتوجيه الفطرة وجهاتٍ إيجابيةً، مركزاً على أهمية الأبوين في عملية التوجيه هذه. قال رسول اللّه ﷺ:

«كل مولود يولد على الفطرة: فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه»[1].

فكل طفل يولد على الفطرة، وإنما يقوم أبواه بالتأثير عليه، وتوجيه فطرته وجهة معينة. وهو يولد مزوداً بقدرات واستعدادات تصقل من خلال النمو الفطري والتنشئة الاجتماعية والتربية وغيرها.

هكذا إذاً جاء الإسلام داعياً وضامناً ومبشراً بحقوق الطفل، وأسس ومبادىء تربيته ورعايته، منذ مئات السنين وقبل أن تعرف البشرية ذلك.

ويأتي تأليف هذا الكتاب محاولة لتتبع البدايات الأولى لرعاية وتربية الطفل، والتي تعد معيناً لا ينضب للدارسين والمربين، وكل من له اهتمام بالطفل، والتي تجسدت في تعاليم الدين الإسلامي الحنيف الذي ظهر وانتشر في وقت كانت البشرية فيه تعاني مرارة التخلف والجهل والوثنية وما إليها من مظاهر سلبية، هدّ الإسلام كيانها واستبدلها بمبادىء غاية في السمو، ومنسجمة مع الطبيعة والفطرة الإنسانية.

وإذا كان الإسلام قد اهتم بالإنسان وحمايته وحفظه وتعزيزه وتكريمه، فقد أعطى الطفل، باعتباره إنساناً، كل هذه الحقوق وزادها خصوصية في تأكيده

---

(1) رواه البخاري، وأبو داود، والترمذي، ومالك، وأحمد.

عـلى حقوق تخص الـطفل، وتضمن حسن رعـايته، وتـربيته، وتحميـه من كـل مظاهر الظلم والعسف والإهمال.

وكانت منطلقات الدين الإسلامي في مجال رعاية الـطفل وتـربيته ذات أبعـاد متداخلة إنسانيـة وقوميـة واعتقاديـة تنسجم في مجموعهـا، وتوازن بـين الجانبـين المادي والروحي في الإنسان، الذي جعله الله خليفة في الأرض.

إن الاهتـمام الذي لقيـه الطفـل في الدين الإسـلامي الحنيف قد أوجـد بيئـة صالحة وأرضية خصبة وثرية لإنسان تتصف حياته في بدايتها بالعجـز والقصور، وتعـد مسألـة رعايتـه وحفظه مسـألة في غـاية الخـطورة والأهمية. فجـاء القـرآن الكريم في آياته التي تخصّ الطفل، وتحدد حقـوقه ومسؤوليـات رعايتـه، ضمانـاً ربانياً للإنسان في مهده وهو ينمو ليحقق ذاته ويقوم بدوره في الحياة.

ويجيء هذا الكتاب محـاولة متـواضعة لنشر بعض المبـادىء والأسس الساميـة التي نادى بها الدين الإسلامي الحنيف لرعاية الطفل وتربيته وحفظه.

وجاء الفصل الأول منه مركـزاً على أبعـاد ومضامـين رعايـة الطفـولة بشكـل عام، وأبعادها ومضامينها في الإسلام، بشكل خاص. وخلص هـذا الفصل الى تحـديد أبعـاد رئيسة لـرعايـة وتربيـة الطفـل في الإسلام، منهـا ما ارتبط بـالبعد الإنساني لرعاية وتربية الـطفل، ومنهـا ما تعلق بـالبعد الأخـلاقي لهذه الـرعايـة والتربية، ومنها ما تعلق بالجانب الاجتماعي. كما تضمن أيضـاً لمحة تـاريخية عن تطور رعاية الطفولة قبل ظهور الإسلام وبعده.

أما الفصل الثاني، فقد جاء مغطياً لموضوع تعريف الطفولة في الإسلام.

واشتمل الفصل الثالث على تحليل مقارن لموضوع حقوق الطفل.

أما الفصل الرابع، فقد تناول الأبعاد الأساسية للمنهج الإسـلامي في توجيـه سلوك الـطفل. بينـما انصب الاهتمام في الفصـل الخامس عـلى موضـوع تنـظيم نسب الطفل كما حددته الشريعة الإسلامية.

وفي الفصل السادس، تم استعراض بعض نماذج لملامح رعاية وتربية الطفل

عند كل من الغـزالي وابن خلدون، كما جـاءت في ميثاق حقـوق الطفـل العربي ويأتي هذا الكتاب جهداً متواضعاً يسهم في تكوين إطار علمي ومرجعي لموضوع رعاية الطفل في الدين الإسلامي الحنيف بمـا يمكّن المهتمين بـرعايـة الطفـل من آبـاء وأمهات وأسـاتذة وغـيرهم، من الاستفـادة من القضـايـا التي تعـرض لهـا الكتاب وما حوته من أسس ومضامين رسخها الدين الإسلامي الحنيف.

المؤلف ـ 1991

الفصل الأول

مؤشرات تاريخية عن تطور رعاية الطفولة قبل ظهور الاسلام وبعده

1

تطور رعاية الطفولة قبل الإسلام وبعده

يرتبط التطور التاريخي التراكمي لنظريات وبرامج وأساليب رعاية الطفولة، ممارسة وتنظيراً، بالتطور التاريخي لمسيرة المجتمعات البشرية عموماً، ويتخذ مسارات جدلية يرتبط فيها التاريخ بسلسلة من العمليات يعتمد فيها الحاضر على الماضي ويقود إلى المستقبل. فهي، إذاً، سلسلة متواصلة الحلقات ومتداخلة النتائج والعوامل ومتشعبة المسارات.

إن تاريخ تطور أساليب الرعاية للإنسان عموماً يتصل بتاريخ تطور رعاية هذا الإنسان في طفولته، ولا يفهم إلا في إطاره، بعمقه وبُعد مدلوله ونتاجاته. ومن هنا تفيد دراسة التاريخ التطوري لرعاية الطفولة في تحقيق جملة من الأهداف، لعل أهمها ما يلي:

1 ـ فهم الواقع الحالي لأساليب وبرامج رعاية الطفولة بشكل شمولي بعيد المدى، ومعرفة اتجاهات التطور والتغير التي تشهدها حركة رعاية الطفولة في إطارها النسقي النامي.

2 ـ الوقوف على حجم وطبيعة المزايا والسلبيات ذات العلاقة ببرامج وخدمات رعاية لكل مرحلة تاريخية وحضارية على الأقل في ملامحها العامة ومظاهرها الشكلية.

3 ـ التعرف على الخصائص العامة والفروق المميزة لرعاية الطفل كما جاء بها الاسلام مقارنة بما سبقها وما لحقها.

4 ـ الاستعراض التحليلي لإسهامات بعض المفكرين العرب المسلمين في إيجاد وتطوير نظريات وأساليب رعاية الطفولة، باعتبارها مُؤشرات استدلالية للدور الحضاري للأمة العربية في هذا المجال الإنساني الهام.

5 ـ محاولة استشراف مستقبل برامج وأساليب ونظريات رعاية الطفل من خلال قراءة وتحليل الماضي ودراسة الوضع الحالي.

وعلى الرغم مما كانت تتصف به البيئة العربية قبل ظهور الإسلام من سلبيات تمثلت في وأد البنات وقتل الأطفال خشية الإملاق وسبي النساء وعبودية الأوثان وغيرها مما ذكره جعفر بن أبي طالب للنجاشي ملك الحبشة عندما سأله عن دينه، فقال:

«أيها الملك كنَّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منَّا الضعيف».

بالرغم من كل ذلك، فإنها كانت بيئة تزخر بجوانب إيجابية شتى في مجال تنظيم الحياة الاجتماعية والذود عن الحِمى ونصرة الضعيف وكرم الضيافة وحسن تربية الناشئة.

ولقد أعطت الأسرة والقبيلة العربية أهمية متميزة للطفل الذكر، وعملت على إعداده إعداداً يجعله قادراً على شق طريقه وحماية أسرته وعشيرته وتحمّل ظروف الحياة المختلفة. وشملت هذه الرعاية مختلف مظاهر نمو الطفل العربي في جسمه وأخلاقه وعلاقاته؛ فكان العربي يحرص على أن ينمّيَ الخصال الحميدة في ذريته، خاصة الذكور منهم.

هكذا إذاً تصارع في البيئة العربية قبل ظهور الإسلام، وبالتحديد في مجال رعاية الطفولة جانبا الخير والشر؛ ففي الجانب الخيّر نجد الأصالة العربية، وكرم

الضيافة، والشهامة، والمروءة، وغيرها من الخصال الحميدة. وفي الجانب الشرير نجد وأد البنات، وقتل الأولاد خشية الفقر، وقطع الأرحام، وهذه ثنائية متقابلة، ليس فقط على مستوى التاريخ التطوري لرعاية الطفولة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، بل أيضاً وبشيء من التجاوز في مختلف الحضارات والحقب التاريخية، وهي ثنائية تقابلية تتذبذب بين تقدير للطفل والحرص على رعايته وحسن تربيته، وبين إهمال وإساءة معاملة.

وبظهور الإسلام رجحت كفة التقابل لصالح الجوانب الخيرة لرعاية الطفولة في إطار من الثوابت والأساسيات ضمنت استمرارية جوانب الخير مما احتواه التراث العربي قبل ظهور الإسلام، وأوجدت بالتالي نوعاً من التواصل بين ما كان سائداً في المجتمع العربي قبل مجيء الإسلام، وبين ما جاء به الدين الإسلامي الحنيف في هذا المجال.

وفي هذا السياق التحليلي يمكننا أن نقف على بعض ملامح ومؤشرات رعاية الطفولة، وتحديد جملة من الثوابت والأساسيات لرعاية الطفل، والتي منها:

1 ـ أكد الإسلام في مبادئه على القيمة العالية للإنسان وتكريمه وتفضيله ووجوب احترامه.

2 ـ أبقى الإسلام على المظاهر الإيجابية لرعاية الطفل وتربيته التي كانت سائدة قبل بعثة النبي ﷺ، كحسن تربية الطفل وتدريبه على الفروسية وغرس مبادىء الشجاعة والكرم في نفسه، وتأكيد اعتزازه بنفسه وبعروبته.

3 ـ ألغى الإسلام المظاهر الخاطئة والسلبية لمعاملة الطفولة التي كانت سائدة في مرحلة ما قبل ظهور الاسلام، كوأد البنات وقتل الأولاد خشية الفقر وعدم توريث الإناث وحرية نكران النسب وغيرها.

4 ـ تضمن الإسلام نسقاً متكاملاً من الأسس والمبادىء السامية التي تنظم حياة الإنسان، وتحدد طبيعة علاقات وأسس رعاية الطفل، وحقوقه، وما يرتبط بذلك من مسؤوليات، كالرعاية، والنسب، وحق الحضانة،

والكفالة، والإعالة، وأسلوب التربية، وملامح ومظاهر الشخصية السوية، ونسق الأخلاق والقيم التي ينبغي أن يتعلمها الطفل ويتحلّى بها.

5 ـ سبق الإسلام بمبادئه وقواعده في مجال حقوق الإنسان ورعاية الطفولة وصون حقوقها المواثيق والعهود الدولية التي جاءت بعد مضيّ مئات السنين لتؤكد في بعض أسسها ومبادئها ما أكده الإسلام منذ عهد بعيد.

6 ـ حددت أسس ومبادىء رعاية الطفولة التي نادى بها الإسلام الأطر القانونية، والتربوية، والأخلاقية، والشرعية، التي تسود في المجتمعات العربية والإسلامية، والتي تتصل في مجموعها بمختلف مظاهر حقوق الطفل ورعايته وبشيء من الخصوصية والتنوع طبقاً للظروف المكانية والزمانية.

7 ـ نشأت ممارسات رعاية الطفل في المجتمع العربي المسلم في المناخ الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، اللذين شكّلا مساراً لكافة برامج وخدمات رعاية الطفولة، مع درجة من المرونة والتقبل سمحت بامتزاجها بالكثير من الثقافات والحضارات الأخرى، خاصة بعد التوسع في الفتوحات الإسلامية.

8 ـ امتد تأثير الدين الإسلامي بمبادئه الأساسية التي جاء بها إلى الكثير من الثقافات والحضارات الأخرى، واهتدت بهديه الكثير من الأمم والشعوب كما هو الحال في بلاد فارس وبلاذ الأندلس وصقلية، كما استمدت بعضُ المواثيق والاتفاقيات الدولية من الإسلام بعض هذه المبادىء التي اعتنت بالطفل وحقوقه، وأقرب مثال على ذلك: ما نصت عليه اتفاقية حقوق الطفل في أواخر عام 1989 م، في جلسة الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم «61»؛ إذ تضمنت الفقرة الثالثة من المادة العشرين من هذه الاتفاقية مبدأً أقره الدين الإسلامي لرعاية الطفل الذي حُرم من الرعاية الأسرية الطبيعية، حيث جاء في هذه الفقرة أنه «يمكن أن تشمل هذه الرعاية في جملة أمور الحضانة والكفالة الواردة في الشريعة الإسلامية».

9 ـ تأكد من خلال الدين الإسلامي الحنيف ثوابت ومعايير لرعاية الطفـل تُعد مقياساً لجدوى وفاعلية أي برنامج يوضع، أو إجراء يتخذ في هذا المجال، كما يضبط من خلالـه أي مظهـر من مظاهـر الخلل والانحراف في بـرامج وأساليب رعاية الطفولة.

10 ـ في إطار هذه الثوابت والأساسيات المتعلقة برعاية الطفـل وضمان حقـوقه في الشريعـة الإسلاميـة أنتج المفكـرون العرب المسلمـون تـراثـاً علميـاً وتربوياً ضخماً يشرح ويحلل الأصول والثوابت التي جـاء بها الإسـلام في هـذا المجال الإنسـاني الهام. وهكـذا كانت آراء ابن سينـا وابن خلدون وابن مسكويه وابن حزم وغيرهم كثير.

11 ـ تعتبر فترة ما بعد ظهور الإسلام فترة مشرقة ومضيئـة على مستـوى ضمان حقوق الطفل وتحديـد مسؤوليات رعـايته، وحمـايته من الضيـاع والتشرد وإساءة المعاملة.

وهكـذا: يمكن، وبشيء من الإيجاز، الإشـارة الى أن مسألـة رعايـة الـطفـل وضـمان حقوقـه لم تحظ في أوروبا في العصـور المظلمـة وبـدايـة العصر الحـديث بالاهتمام والتقدير الذي حظيت به مع ظهور الإسلام وانتشاره. فقد نفح الدين الإسلامي في رعاية الطفل وتربيته روحاً جديدة، ووجّه المجتمع تـوجيهاً إيجـابياً فريداً، شمل الطفل بالعناية والاهتمام.. فقد كـانت مرحلة الـطفولـة في أوروبا في تلك العصـور مرحلة قصـيرة جداً، تنتهي ببلوغ الـطفـل عـامـه السـابـع أو الثـامن، وكان الأطفـال يعاملون معـاملة الكبار في حـالة الجـريمة والانحـراف، فيحاكمون ويودعون السجون مع الكبـار، وتطبق عليهم أحكـام الإعدام، كـما كانت الفئات المحرومة من الأطفال تعيش ظروفـاً صحية واقتصـادية واجتـماعية قاسية، فكـانوا عـرضة لانتشـار الأوبئة والأمـراض. وقد كـانت هذه الـظروف وغيرها مدعاة لاهتمام عالمي، جسـدته الأمم المتحـدة في إعلانها لحقـوق الطفـل عـام 1959 م. وحتى مـع صـدور هـذا الإعــلان، فـلا زال الكثـير من الأمم والشعوب لا يعطي الطفولة حقها، ولا تضمن حسن رعـايتها؛ إذ هنـاك أطفال

يباعون بمبالغ زهيدة في بعض أجزاء من شرق آسيا. وهناك أطفال يعملون بالسخرة، وآخرون اختلطت أنسابهم من جراء التخصيب الصناعي؛ كما في الولايات المتحدة، وهنا أطفال التخصيب الأنبوبي والصناعي؛ وهناك أطفال آخرون يستخدمون لإجراء التجارب الطبية والدوائية على أجسامهم.

هكذا، إذاً، تميز الإسلام بنبل مبادئه في رعاية الطفل وحسن تربيته باعتباره إنساناً مكرماً فضّله الله على كثير من مخلوقاته، ورزقه من الطيبات، وحماه من الظلم والقهر وإساءة المعاملة، بكافة أشكالها، والتي هي مصدر شقاء الأعداد الهائلة من الأطفال في مختلف أنحاء العالم.

الفصل الأول

2

ابعاد ومضامين رعاية وتربية الطفل في الإسلام